أثر القرار السياسي في نشأة الدرس اللغوي وتطوره

أ.سعيد فاهم

جامعة مولود معمري- تيزي وزو-

مقدمة: منذ القدم كان الاهتمام باللغة؛ لأنها تعتبر أهم مقومات الشخصية الوطنية والحضارية على حدّ سواء، وهذا الأمر يصدق على جميع لغات العالم، ومنها اللغة العربية؛ فمنذ العصر الجاهلي كان الاحتفاء والاهتمام بها، فرئيس القبيلة كان عليه أن يكون خطيبا متقنا لفنون الكلام إن لم نقل شاعرا إضافة إلى الفروسية، كما أن القبيلة تحتفل بميلاد شاعر لها، كما عقدت مجالس للشعر في الأسواق كسوق عكاظ والمربد وبمجيء الإسلام إزدادت قدسية اللغة العربية، لأنها لغة القرآن الكريم، دستور هذه الأمة وقانونها، لكن هذه اللغة بدأ اللحن يتسرب إليها بعد الفتوحات الإسلامية ودخول الأعاجم في هذا الدين الحنيف فخيف على القرآن الكريم من التحريف فهبّ العلماء إلى الحفاظ على لغته، حفاظا عليه وكان إلى جانبهم ولاة الأمر والسياسة.

والمتصفح لكتب اللغة العربية يجد الحديث عن دور العلماء في الحفاظ على اللغة العربية ونشأة الدرس اللغوي، ولكن قلّما نجد الحديث عن دور ولاة الأمر أو بالأحرى الساسة في نشأة هذا الدرس ولهذا أردت أن أجيب عن سؤال تبادر إلى ذهني مرارا وهو: هل كانت الأسباب الدينية هي الدافع الوحيد لنشأة الدرس اللغوي؟ ألم يكن للأسباب السياسية أثر في هذه النشأة؟ وإن كانت هناك أثار فهل هي مباشرة أم غير مباشرة؟ وهل هي ذات بال؟

هذا ما أردت التطرق إليه من خلال هذه الورقة، ومن هنا كان لزاما عليّ أن أتبع المنهج التاريخي مع تحليل النتائج لاستخلاص المواقف التي لعبت فيها السياسة الدور البارز والمهمّ في مسار الدرس اللغوي من النشأة إلى التطور.

فوجدت أن المواقف كثيرة متعددة، لكن ضيق المقام لا يكفي لذكرها فاكتفيت بذكر أنموذجين لا غير كان للأول دور في نشأة هذا الدرس وللثاني دور في اتخاذه منحنى آخر، هذان الأنموذجان هما عبد الملك بن مروان أحد ملوك العصر الأموي والمأمون من خلفاء الدولة العباسية.

البيئة اللغوية في العصر الأموي: في هذه الفترة كانت قد أنشئت مدينتا البصرة والكوفة وغدتا حاضرتي الدرس اللغوي، كانت البصرة تمتد شرقا إلى إقليم خراسان، وتنوعت فيها الثقافات، فقد سكنها النبط والسريان واليهود والفرس، إضافة إلى العرب فغلب عليها الطابع العقلي.أما الكوفة فكانت تسمى عاصمة عراق العرب غلب عليها الطابع النقلي؛ حيث عرفت بدار الرواية فالضبي وأبو عمرو الشيباني كانا قائدي الحلبة في رواية الشعر، كما سكنها صحابي جليل هو عبد الله بن مسعود وهو من حفظة القرآن ورواية الحديث والذي رزق حسن الفهم واستنباط الأحكام الفقهية من النصوص. إضافة إلى اختلاف الطابع الثقافي بين المدينتين كانت موقعة الجمل التي غذت الخلاف السياسي والعسكري بين أهل المدينتين[1].

مما سبق أن ذكرته عن تعدد الثقافات في البصرة وكثرة سكانها من الأعاجم الذين استوطنوها واختلطوا بالعرب كانت نتيجته أن انتشرت العامية ونشأ فيها اللحن بصورة جلية، فهب العلماء وولاة الأمر إلى التصدي لهذه الظاهرة، وما قام به العلماء كما سبق وأن ذكرت مبسوط في جميع الكتب التي تؤرخ للدرس اللغوي، لذا سأذكر ما قام به ولاة الأمر باختصار.

1- اهتم الخلفاء بإتقان اللغة العربية، والخطابة، واتقاء اللحن، وذلك بحكم مراكزهم، فكان لزاما عليهم إلقاء الخطب على الناس في المواسم

والأعياد والحروب...الخ. فكان أقبح شيء عند العرب آنذاك أن يسمعوا لحنا فما بالك إذا كان من الولاة، حتى إنه ألفت رسائل في لحن العامة، وأخرى في لحن الخاصة، وعدوا في هذه الأخيرة ممن لا يلحن: عبد الملك بن مروان وشبيبا الخارجي وعامرا الشعبي وأيوب بن القرية.[2]

2- سارع ولاة الأمر إلى تنشئة أبنائهم على سلامة اللغة وفصاحة اللسان وذلك ببعثهم إلى البادية فأصبحوا قدوة لغيرهم من القادة، فأحيوا بذلك شعيرة من شعائر العرب في الجاهلية، فالرسول (ص) استرضع ونشأ في بني سعد بن بكر..

3- الإصهار إلى القبائل العربية؛ حيث سعى الكثير من ولاة الأمر إلى اتخاذ زوجاتهم من نساء القبائل العربية الفصيحة لينشأ أبناؤهم على الفصاحة كما فعل معاوية بن أبي سفيان بزواجه من ميسون الكلبية أم يزيد، وذلك لأنهم أدركوا بالفرق بين أن ينشأ أبناؤهم في حجر أم أعجمية اللسان، وأم عربية فصيحة اللسان[3]. كما تميز الأمويون عمّن حكموا بعدهم بميزة خاصة هي التمسك بالعروبة فراحوا يدققون في أنساب الخلفاء، وأنساب كبار موظفي الدولة ولاسيما الولاة منهم، فيعتمدون ذوي الأصول العربية الصافية، فكان نتيجة هذا أن حرم العديد من شخصيات بني أمية من استلام منصب الخلافة بحجة أنهم لم يكونوا عرباً خلصا من ناحية آبائهم أو أمهاتهم.

اهتم الخلفاء والأمراء بعلوم العربية وأهمها الأدب واللغة وضوابط النحو وعقدوا المجالس الأدبية فكان ذلك محفزا لعلماء العربية للحفاظ على هذه اللغة

كان الصراع السياسي في هذا العصر دافعا إلى عودة الشعر السياسي إلى الحلبة بعد أن استكان لفترة خلافة الخلفاء الراشدين، فالشعر في هذه المرحلة كان بمثابة وسائل الإعلام اليوم، فاختار الأمويون أكثر الشعراء فصاحة كما كان لخصومهم شعراء يدافعون عنهم.وبكثرة مجالس السمر عاد شعر الغزل إلى الواجهة ولقي اهتماما كبيرا، وأصبح له تياران: تيار الغزل العفيف

العذري وزعيمه جميل بن معمر، والغزل الصريح اللاهي وزعيمه عمر بن أبي ربيعة.

كان الأمويون يتمتعون بحس أدبي راق جعلهم يشجعون الشعراء ويجزلون لهم العطاء حتى إن من الخلفاء من كان شاعرا كالوليد بن يزيد.

كما كان للعوامل السياسية المتمثلة في الفرق والثورات المختلفة، وعامل الجهاد الذي اتسع في عهد الدولة الأموية بحكم رغبتهم في توسيع رقعة الدولة الإسلامية، وكذلك نمو تيّار الوعظ الديني أثر كبير في ازدهار فن الخطابة فكان أشهر الخطباء الأمويين معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز ومن ولاتهم الحجاج بن يوسف، وزياد بن أبيه وعمرو بن العاص، أما خطباء الفرق فأشهرهم نافع بن الأزرق، وعبد الله ابن الزبير وغيرهم من الخطباء.

التعريف بعبد الملك بن مروان: هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص. ولد عام 26 هـ، حين بلغ ستة عشر عاما، جعله معاوية بن أبي سفيان على ديوان المدينة فظل بها إلى أن كانت الثورة في الحجاز على يزيد بن معاوية سنة 63 هـ، فانضم عبد الملك بن مروان إلى جيش عقبة بن مسلم الذي بعث من قبل يزيد لإخماد الثورة.

بعدها انتقلت الخلافة من أبناء معاوية إلى مروان بن الحكم وأصبح عبد الملك الخليفة بعد ستة أشهر من خلافة أبيه الذي أخذ له البيعة قبل وفاته؛ حيث مرض في أواخر أيامه مرضا كان يلح العطش عليه فيه، إلا أن الأطباء نصحوه بعدم الإكثار من الشرب. فكانت وفاته في 14 شوال 86 هـ الموافق لـ8 سبتمبر 705م .

عرف عبد الملك بن مروان بعلمه ورجاحة عقله وأدبه وهيبته، وحنكته السياسية، استمر حكمه مدة 26 سنة، فكان خطيبا معدودا في بني أمية لا يلحن أبدا، فهو الذي قال" شيبتني خشبتان: النعش والمنبر".[4]

إنجازاته: ما إن خلص عبد الملك بن مروان من مشاغله الداخلية، التي تجسدت في قمع حركات التمرد التي هدّدت الدولة الأموية بالسّقوط والزّوال في وقت مبكر- إلى حين- حتى بدأ في أكبر عملية حضارية وهي عملية التعريب والتي شملت دواوين الدولة برمتها وكذلك عملة الدولة المتداولة بين الناس.[5] وكانت الدواوين التي شملتها عملية التعريب تتمثل في ديوان الجند، وديوان الرسائل، وديوان المغانم، وديوان البريد، وديوان الخراج وكان هذا الأخير يعمل في العراق باللغة الفارسية وفي الشام ومصر باللغة اليونانية؛ حيث رأى عبد الملك بن مروان أن إبقاء أهم ديوان من دواوين الدولة – وهو ديوان الخراج- المهيمن على الشؤون المالية يستخدم لغات غير العربية أمر شاذ، ويجب إنهاؤه، وإذا كانت الضرورة قد فرضت ذلك عند نشأة الدولة الإسلامية لقلة خبرة العرب المسلمين بشؤون المال والجباية من ناحية ولانشغالهم بالجهاد والفتح من ناحية ثانية، فإن هذه الضرورة قد زالت، وقد ظهر في العرب ومواليهم من هم مهرة في هذه الشؤون، ولهذا قرر عبد الملك تعميم استخدام اللغة العربية في دواوين الخراج، وأمر بترجمتها فكلف سليمان بن سعد الخشني بنقل ديوان الشام إلى اللغة العربية فنقله في عام كامل، كما أمر الحجاج بن يوسف كاتبه صالح بن عبد الرحمن بنقل ديوان العراق من الفارسية .أما فيما يختص بالعملة فقد تم التخلص من جميع العملات السابقة وتم استبدالها بالدنانير العربية التي تبلورت في صورتها النهائية سنة 77 هـ /696 م.[6] لم يكن عبد الملك بن مروان سياسيا فحسب، بل كان شاعرا أيضا يطارح جلسائه من الشعراء الشعر ويجول معهم في نقد الأبيات الشعرية، وقد قام برد الشاعر الأخطل إلى البلاط الأموي وجعله

شاعر بني أمية، كما شجع شعر النقائض على الظهور أكثر.[7] وكان لهذا التشجيع نتيجة سأتطرّق إليها فيما بعد.

أثـر هذه القرارات: كان لهذه القرارات أثار على الدولة الإسلامية بصفة عامة وعلى الدرس اللغوي بصفة خاصة وكما يقال:

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا ❖ فشيمة أهل البيت كلهم رقص

فإذا حافظ ولاة الأمر على اللغة العربية، وسعوا إلى تطويرها سعت الرعية إلى الأمر نفسه وبهذا فإن اهتمام عبد الملك ابن مروان باللغة العربية كان مشجعا للعلماء على المضي قدما إلى الحفاظ عليها؛ لأجل حماية القرآن الكريم من اللحن والوقوف أمام تيار ثقافات وحضارات الدولة المفتوحة.

فكان لتعريب الدواوين أثر بالغ، ونتائج مهمة منها المباشرة ومنها غير المباشرة، وتتجلى الأولى في تدعيم سلطة الدولة إداريا بعدما بسطت نفوذها السياسي على مختلف أرجاء الدولة، كما تم إبعاد الموظفين غير العرب وإتاحة الفرصة للعرب للوصول إلى أرفع المناصب الإدارية، وأهمها شأنا بعدما اقتصر ذلك على غير العرب قبل ذلك الوقت، وهذا بالنسبة لعبد الملك بن مروان تناقض وسياسة الدولة، التي تطمح إلى حصر السيادة في العنصر العربي، كما حلت اللغة العربية محل اليونانية والفارسية والآرامية واللاتينية وغيرها من اللغات في تمثيل الثقافة الإسلامية.

وقد أدّى هذا الأمر في الأندلس إلى تطورات خطيرة كانت ستؤدي إلى خسائر كبيرة لولا أن الدبلوماسية شغلت دورا إيجابيا في هذا الأمر، إذ إنه وبعدما أصبحت اللغة العربية لغة الثقافة في عصر الإمارة الأموية، اجتذب ازدهار هذه الثقافة المستعربين المهتمين بهذه اللغة فأقبلوا على تعلمها والإطلاع على كنوزها وإبداعاتها الثقافية فتراجعت بذلك اللغة اللاتينية، فهبّ حماة هذه الأخيرة ومعظمهم من رجال الدين إلى حماية حضارتهم التي أحسوا بانحسارها أمام حضارة العرب فأشعلوا نار الفتن لمنع امتزاج الحضارتين، أو انصهار

حضارتهم وذوبانهم في بوتقة الحضارة الإسلامية، إلا أن حركتهم هذه لم تستمر طويلا وبهذا كان لقرار التعريب أثر يوازي أو يفوق أثر المعارك والفتوحات في إرساء الثقافة العربية.

أما النتائج غير المباشرة فتتجلى في إقبال المسلمين غير العرب على هذه اللغة وتعلمها، ففي البداية كان إقبالهم لهدف ديني وهو فهم هذا الدين الجديد الذي يدينون به، ولكن بقيام الدولة الأموية ولجوء حكامها إلى سياسة التفرقة بين المسلمين بحسب الأعراق، وجدوا أنفسهم مهمشين، فقد انقسم المسلمون إلى عربي ومولى، فانقضى بذلك عهد الأخوة الإسلامية الذي ساد فترة خلافة الخلفاء الراشدين، وقد كان أكثر كتاب الدواوين في هذه المرحلة من الفرس أو غيرهم ممن يتقنون الكتابة فوجدوا أنفسهم بعد قرار عبد الملك بتعريب الدواوين وجها لوجه مع البطالة مع عدم الإحساس بالانتماء الاجتماعي[8]. هذا إضافة إلى سلبهم أداة مهمة لاعتلاء مناصب عليا في الدولة ، فكان لزاما عليهم أن يتعلموا هذه اللغة لكونها "أصبحت الحاجز الذي يحول بينهم وبين الوصول إلى المناصب الرفيعة وكذا الإحساس بالزمالة الاجتماعية؛ إذ كانت هناك فئة قليلة من الموالي الذين استطاعوا الاندماج في المجتمع وهم الذين نشأوا في حجر العرب كبشار ابن برد والحسن البصري وغيرهم ممن امتلكوا الفصاحة والسليقة العربية"[9]. ومن هنا تلقف الموالي تلك التصنيفات الأولى للنحو كأقسام الكلم وحركات الإعراب، من إنجازات الطبقة الأولى وهم الدؤلي وأصحابه[10] وراحوا يسعون إلى تعلم النحو وتعليمه لأبناء بلدتهم وحقا نبغوا في ذلك ، فوضعوا المختصرات التي كانت تبدأ بـ "إعلم يا فتى" والتي كانت تبدو موجهة إلى أبناء الخلفاء ورجال الدولة الذين كانوا يتخذون لأبنائهم مؤدبين يعلمونهم العربية، إلا أن هذه المختصرات جعلت تعلم العربية في متناول الموالي والمولدين[11]. وهكذا حقق الموالي ما كانوا يصبون إليه حتى إننا نجد فيما بعد أن جمهرة النحاة[12] ورجال الحديث[13]. أغلبهم موالي، فاستطاعوا بعد ذلك أن يشاركوا في الحياة

الاجتماعية خاصة في نهاية العصر الأموي وقيام الدولة العباسية على أكتاف الفرس بقيادة أبي مسلم الخراساني الذي قتل على يد أبي جعفر المنصور حيث سرعان ما تسلقوا المناصب العليا، واستأثروا بها خاصة وأن اللغة العربية قد أصبحت ملكة لديهم.

إلا أنني أريد أن أقول إن اعتلاء المناصب لم يكن الهدف الأول عند كل من أراد تعلم العربية من الموالي، بل كانت هناك دوافع أخرى وهي حب هذه اللغة والافتتان بها، وحب هذا الدين والسعي إلى الحفاظ عليه من اللحن وكذا حماية الحديث الشريف من الأحاديث الموضوعة وهذا ما نجده من خلال تتبع سير العظماء من جماع الحديث الشريف، وجهابذة النّحو.

وقد كان لتشجيع خلفاء الدولة الأموية للشعر كما ذكرت سابقا وإحيائهم العصبية القبلية، أثر كبير على تطور الشعر السياسي، وظهور شعر النقائض، وكان لهذا الشعر الفائدة العظيمة وتتمثل في حفظه لنا العديد من الألفاظ حتى إنه قيل "لولا الفرزدق لذهب ثلث اللغة". وحفظت لهذه الألفاظ جزالتها فقد استعملها شعراء النقائض على معناها الصحيح؛ حيث لم تكن قد شوهت بعد الاختلاط بالأعاجم. هذا من ناحية اللغة أما من الناحية الحضارية فقد نقل لنا شعر النقائض مظاهر الحضارة آنذاك فهو قد دلّنا على الحياة التي طرأت على أهل المدر في تلك الفترة، كانتشار مجالس السمر...الخ، والحياة الغالبة على البدو من خلال شعرهم المليء بالمفاخرة الجاهلية كالفخر بالأنساب وبأيام العرب، وبالكلام على الثأر.

نتيجة لحركة الفتوحات الإسلامية، اتصل العرب بالأمم الأخرى وكان لهذه الأمم تجارب حضارية،فنتج عن هذا الاختلاط حضارة راقية أتت ثمارها في العصر العباسي وكذا الأندلسي ومن خلال هذا الاختلاط تسربت أفكار فلسفية يونانية وهندية وفارسية، لكن بصورة ضعيفة إبان العصر الأموي، ثم أخذت تجد لها طريقاً أوسع في العصر العباسي. إذ لم تكن للترجمة إبّان العصر

الأموي وجود واضح، كان قد بدأ بها الأمير خالد بن يزيد بن معاوية الكيميائي، فترجم له كتب في الكيمياء والطب والفلك كما نقل له مريانوس الراهب بعض كتب الكيمياء والمنطق وغيرها، كما قام الطبيب اليهودي "ماسرجويه" بنقل كتاب في الطب إلى اللغة العربية.

أما في بداية العصر العباسي فكانت هناك ترجمة لكتب الفلك والرياضيات والطب وبعض كتب الأدب من السريانية والفارسية والهندية، كما اهتم هارون الرشيد بالترجمة فقد أمر(يوحنا بن ماسويه) بنقل كتب طبية وتمت ترجمة كتب أخرى كالمجسطي والكتاب الأعظم.

ولكن منذ عام 198 هـ إلى عام 300 هـ وبمجيء المأمون بدأت حركة ترجمة العلوم الفلسفية والمنطق كما انطلقت حركة التأليف والنقد والتعليق والشرح في تلك المجالات.[14]

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: ما الجديد الذي جاءت به حركة الترجمة في عهد المأمون؟ أو بالأحرى ماذا أضافت الترجمة في عهده إلى الدرس اللغوي؟.

التعريف بالمأمون: ولد المأمون في الخامس عشر من ربيع الأول (170هـ) في اليوم الذي استخلف فيه الرشيد فسماه تيمنا بذلك، وأمه مراجل جارية فارسية توفيت بعد ولادته بأيام متأثرة بحمى النفاس.

وحتى لا يختلف مع أخيه الأمين أشركه الرشيد مع المأمون في ولاية العهد بعد أن كان حرمه منها نزولا عند رغبة زوجه زبيدة، واستوثق لكل منهما من أخيه سنة (186هـ)، وبعد تولي الأمين الخلافة عقب وفاة هارون الرشيد عاد عن وعوده لأبيه وجعل ابنه موسى وليا للعهد فقامت بذلك العداوة بين الأخوين وانتهت بمقتل الأمين على يد أخيه المأمون سنة 198 هـ.[15] قام المأمون بحملة للقضاء على الثورات كثورة ابن طباطبا العلوي والحسن بن الحسين في الحجاز وعبد الرحمن بن أحمد حفيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة 207 هـ.

وأقدم حينها المأمون على اختيار أحد أبناء البيت العلوي، وهو علي بن موسى الرضا وليا للعهد مما أثار ثائرة العباسيين مما دفعهم إلى مبايعة إبراهيم بن المهدي عم المأمون سنة 202 هـ فتوجه المأمون لقتاله، إلا أنه تراجع وهدأت الفتنة بوفاة علي بن موسى.

توفي المأمون في البندون قريبا من طرسوس في 18 رجب 218 هـ عن عمر بلغ 48 عاما قضى منها في الخلافة 20 عاما .

إنجازاته: شهد عهد المأمون نهضة حضارية كبيرة فقد كان محبا للعلم والأدب شاعرا عالما وأديبا يجالس الشعراء ويشجعهم كما كان يعجب بالبلاغة والأدب، وللفقه نصيب كبير من اهتمامه كما أن العلماء والأدباء لا يفارقونه في حضر أو سفر، فكان لتشجيعه الشعراء دفعة قوية لهم، كما أدى تشجيعه للعلوم والفنون والأدب والفلسفة إلى رقيها وتقدمها، وانبعاث حركة أدبية وعلمية زاهرة.

فقام بإرسال البعوث إلى القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكيا وغبرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان. وفي غمرة انتصاره على الروم عام (215 هـ) طلب من ملكهم أن يبعث إليه بكتب قديمة، بدلا من الغرامة التي فرضها - المأمون- عليه. هذه الكتب كان قد جمعها علماء اليونان وخبئوها بعد انتشار المسيحية في بلادهم ،خوفا عليها من الضياع، نظرا للاضطهاد الذي كانت تمارسه الكنيسة في حق العلماء، فوافق ملك الروم معتبرا بذلك مكسبا له. فكأن أن أرسل المأمون الحجاج بن يوسف بن مطر لانتقاء الجيد من تلك الكتب وإحضارها ثم ترجمتها.

كما قام بإنشاء مجمعٍ علمي في بغداد، ومرصدين أحدهما في بغداد والأخر في تدمر، وأمر الفلكيين برصد حركات الكواكب ورسم خريطة جغرافية كبيرة للعالم.

ظهر في عهده الكثير من العلماء الذين قاموا بترجمة العلوم والآداب والفلسفة إلى العربية وتطويرها أيضا ومن هؤلاء نذكر: حنين بن إسحاق الطبيب والمؤلف والمترجم فقد ترجم كتباً عديدة لأرسطو وأفلاطون إلى العربية[16]. ويحيي بن ما سويه الذي كان يشرف على بيت الحكمة في بغداد وكان متقنا للعربية والسريانية، متمكنا من اليونانية، وكذلك ميخائيل بن ماسويه طبيب المأمون الخاص.

ولقد كانت للهدنة التي سادت بين الخلافة العباسية والروم لمدة دامت عشرة أعوام أثر مساعد لتلك النهضة الحضارية والعلمية في عصر المأمون.[17]

أثـر إنجازات المأمون: مهما كانت الدوافع التي أدت إلى الترجمة في عهد المأمون فإن الذي يهمنا هنا هو أثر هذه الترجمة على الدرس اللغوي، فقد كانت هذه المرحلة نقطة تحول في مسار الدرس اللغوي؛ حيث كان قبلا الاهتمام بالنصوص وتقديسها فغلب بذلك الطابع النقلي على المراحل الأولى من مسار هذا الدرس، أما في هذه المرحلة فقد بدأ التحول من الطابع النقلي الصريح إلى طابع يتآخى فيه النقل والعقل، وذلك بتوجه العلماء في ظل الدولة المعتزلية إلى الإطلاع على كنوز الفكر اليوناني مترجمة إلى لغتهم؛ حيث أثبتوا فيما بعد أنهم قادرون على استيعاب هذه العلوم والانطلاق منها للخلق والابتكار، ومن المجالات التي برز فيها هذا التأثير بصفة جلية نذكر:

مجال النحو: ويرى بعض النحاة المعاصرين على أنّ النحاة القدماء قد تأثروا بالفقهاء في هذا المنهج النقلي، سواء في بحثهم أو استخلاص أصول النحو أو طرائق تأليفهم؛ إذ يبدو بكلّ جلاء سير النحاة على خطى الفقهاء في ذلك وتقليدهم في مصطلحاتهم، حيث يتفقون في القاعدة التي تقول بأنّ: «النحو معقول من منقول، كما أنّ الفقه معقول من منقول».[18] إضافة إلى استعمالهم المصطلحات نفسها التي يستعملها الفقهاء مثل السماع (النقل) القياس استصحاب الحال، الاستحسان، الإجماع... إلخ.[19]

وإن كان هناك ممن تأثر بالمنطق الأرسطي إبان المرحلة الأولى والمتقدمة من تاريخ الثقافة العربية فإنّهم المعتزلة إلاّ أنّ تأثرهم هذا لم يخرجهم عن نطاق الفكر العربي المرتبط بالنصوص وكان الدافع إلى ذلك تلك المناقشات بين أصحاب الديانات الأخرى في مجال العقائد، والتي كانت تجري في البلاط الأموي بين رجال من المسلمين وبعض المسيحيين مثل: يحيي الدمشقي وهو ابن منصور ابن سرجون عامل على بيت مال المسلمين والذي كان ينكر على مناظريه احتجاجهم بالنصوص مبديا عدم اقتناعه بجدوى هذا الاستشهاد في الاستدلال، فكان يحاججهم باستعمال المنطق وبراهينه فكان أن سعى هؤلاء العلماء المسلمون إلى التسلح بهذا المنطق بغية الانتصار في مناظراتهم والردّ على أبناء الديانات الأخرى.[20] ثم سرعان ما انجذبوا في هذا التيار فاعتزلوا مجالس السلفيين وسموا أنفسهم المعتزلة فكان أن لقوا غير قليل من التحفظ والاستنكار من المجتمع الإسلامي الذي كان يعتمد النصوص ويقدسها نظراً لوفائه لطابعه النقلي في مراحله الأول؛ حيث صار معظم نحاة هذا العهد يعتنقون مذهب الاعتزال.[21] ومن يطلع على مقابسات أبي حيان التوحيدي ويقرأ تلك المناظرات مع المناطقة والمترجمين يكتشف مدى إيغال بعضهم في استعمال المنطق لدرجة إنكار الناس عليه ذلك كالذي يقوله الفارسي في الرماني: "إن كان النحو ما عندنا فليس عند الرماني منه شيء .وإن كان النحو ما عند الرماني فليس عندنا منه شيء"[22]. إذا لقد وجد المعتزلة في عهد المأمون الأرض الخصبة التي يرتعون فيها، فكانت بذلك بداية مرحلة جديدة في تاريخ الثقافة الإسلامية وذلك بالانتقال من الطابع النقلي الصريح إلى طابع يمتزج فيه العقل بالنقل، وكانت حركة النقل والترجمة، التي ابتدأت قبلا مع خالد بن يزيد (ت 90 ه) (708 م) والتي جعلت المؤلفات الفلسفية اليونانية في متناول المفكرين وعلماء العرب خاصة في عصر المأمون (786 م، 833 م) كانت عاملا مساعداً على ظهور التيار الفلسفي، خاصة وأنّ المأمون كانت له ميول معتزلية وتجلّى

ذلك في محنة خلق القرآن التي لاقى فيها السلفيون وعلى رأسهم أحمد بن حنبل ويلات السجن، نتيجة ارتباطهم بالنصوص، حتى إنّه كان متمسكاً بها في تلك المحاكمات التي كانت تعقد لمحاسبة من يرفض تلك الأفكار المعتزلية.

ويتجلى تأثر النحاة بالفكر اليوناني في المجالات التالية:

1- الحدود والتعريفات؛

2- اعتمادهم على القسمة العقلية في عرضهم لمسائل النحو؛

3- استعمالهم مصطلحات المنطق في عرضهم المسائل والتقسيمات؛

4- تعليقات الشراح وأصحاب الحواشي على عبارات المتون والشروح تشتمل على إشارات الأقيسة؛ المنطقية بأشكالها المحددة وأسمائها التي تعرف بها في متون المنطق.[23]

كما استفحل أمر العلّة أكثر وتفاقم تغلغل الفلسفة وعلم الكلام في النحو وطرائق النظر في مسائله، ذلك أنّ النحاة احتذوا بالمتكلمين، وقلّدوهم وأخذوا بتطعيم نحوهم بالفلسفة وربما يرجع ذلك إلى تصدر علم الكلام مجالس العلم آنذاك حتى أن عدداً كبيراً من نحاة ذلك العصر كانوا من المتكلمين فتجد السيرافي مثلا يمزج النحو بالفلسفة والمنطق حتى يجعلهما في واد واحد بينما يجعلهما الرماني وجهين لعملة واحدة، وقد بلغ الأمر بأبي حيان التوحيدي في "المقابسات" أن قال: "إن النحو منطق لغوي والمنطق نحو عقلي" ثم أردف قائلا:"وبهذا تبيّن لك أن البحث عن المنطق قد يرمي بك إلى جانب النحو والبحث عن النحو يرمي بك إلى جانب المنطق، ولو أن الكمال غير مستطاع لكان يجب أن يكون المنطقي نحويا، والنحوي منطقيا، خاصة والنحو نحو اللغة العربية والمنطق مترجم بها ومفهوم عنها..."[24]

هذا الأمر لم يرق لنحاة آخرين مثل الفارسي الذي سبق وأن سقت قوله في الروماني فالفارسي ينفر من أن يصبح النحو نحواً عقلياً نظرياً جدلياً أكثر مما كان عملياً مستمداً من واقع اللّغة الحية المتداولة فقد غدت طرائق النحاة في

النقاش والإقناع والتعليل أشد اقتراباً من علم الكلام والجدل منها إلى علم اللّغة وأحكامها.ويقول محمد خير الحلواني متحدثاً عن الحقبة التي عاشها فيها العكبري «ولقد كان النحو في هذه الحقبة مشبعاً بالروح الفلسفية ورث عن الخليل وسيبويه والفرّاء عللاً وأقيسة ثم جاء ابن السراج فأنشأ في النحو كتابه (الأصول) بناء على مزج النحو بالمنطق وخالفه الفارسي والرماني وابن جني والزمخشري، أولئك الذين وصلوا ذروة شماء من مزج هذين العلمين بعضهما ببعض ثم بزغ نجم الأنباري أبي البركات في القرن السادس فلمّ شعث آراء هؤلاء في كتبه (الإنصاف في مسائل الخلاف)، و(لمع الأدلة) و(الإغراب في جدل الإعراب) فكان مثلاً واضحاً لما أخذ به النحاة أنفسهم من دراسة فلسفية تقوم على الحد والعلّة والقياس»[25]. كل ما سبق ذكره وجد في عهد المأمون وبعده ولم يكن مما يعرفه النحاة من قبل مما يشير إلى أن نشأة النحو العربي لم تعرف المؤثرات اليونانية، وإنما عرف بعد القرن الثاني للهجرة.

خاتمة: كانت الدولة الإسلامية في عصر الأمويين من أهم وأكبر دول العالم على الإطلاق، وتجلت عظمتها في كونها عربية خالصة ولا سيما بعد إنجازات حكامها كعمليات التعريب في ميدان الإدارة والنقد(العملة) فازدهرت اللغة العربية في هذا العصر وأصبح مقياس التحضر أن يتمكن الإنسان من قراءة العربية وكتابتها، وحين نتأمل ما حدث في أواخر العصر العباسي نرى بوضوح أهمية ما قام به الأمويون في هذا الصعيد إذ كان ضرورة إستراتيجية، ومهمة وطنية وقومية عملاقة، فقد أدى التخلي عن هذه الإستراتيجية الإيجابية في أواخر العصر العباسي إلى ظهور قوميات تمثلت بحركة الشعوبية التي أعلن أصحابها راية الحرب ضد الوجود العربي على كل صعيد، وكذلك فعل الأتراك والسلاجقة حين حجروا على الخليفة العباسي وأصبح اسما لا قيمة له.

كان للأمويين إيمان راسخ بأن العرب لن يكتب لهم الخلود إلا ببلوغ المجد والرقي وتجسيد الروح العربية في جميع المجالات، فما أجدر بنا أن نعود نحن العرب إلى تطبيق ما طبقه أجدادنا في ماضيهم المجيد، وأن نحاول بناء مجد جديد لتصبح الدولة الإسلامية منبعا للإشعاع الثقافي كما حدث في عهد المأمون؛ حيث أدت إنجازاته إلى بعث نهضة فكرية عظيمة امتدت أصداؤها من بغداد حاضرة العالم الإسلامي ومركز الخلافة العباسية إلى جميع أرجاء المعمورة، فقد استطاع المأمون أن يشيد صرحا حضاريا عظيما، وأن يعطي للعلم دفعة قوية ظلت أثارها واضحة لقرون عديدة.

الهوامش:

1- تمام حسان الأصول، عالم الكتب، د.ط: 2000 م، ص30.

2- ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح : محمد محي الدين،ج1، دط، القاهرة: 1948، ص399.

3- أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، د.ط، دار الكتب المصرية القاهرة، ج14. ص178.

4- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي القديم، ج1 ، ط3 دار العلم للملايين، بيروت : 1978، ص 510-511.

5- نفسه، ص512.

6- مقال منشور منقول عن كتاب الدولة الأموية للدكتور: عبد الشافي عبد اللطيف.

7- عمر فروخ، المرجع السابق، ص512.

8- تمام حسان، الأصول، ص27.

9- نفسه، ص27.

10- وهم: عنبسة الفيل، يحي بن هرمز، ميمون الأقرن، نصر بن عاصم.

11- المرجع السابق، ص27

12- سيبويه، ابن جني...الخ.

13- النسائي، الترمذي، ابن ماجة، البخاري، مسلم، كلهم ليسوا بعرب.

14- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج2، دار العلم للملايين بيروت: 1980 م، ص33.

15- نفسه، ص36.

16- أ.د. عبد الفتاح مصطفى غنيمة، العلم والترجمة في عهد الخليفة المأمون مقال منشور.

17- المرجع نفسه.

18- كريم ناصح الخالدي، أصالة النحو العربي، ص91.

19- المرجع نفسه، ص91.

20- المرجع نفسه، ص102.

21- تمام حسان، الأصول، ص52.

22- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب دار عالم الكتب، دط:1997، ص150. نقلا عن: الاقتراح، ص46.

23- تمام حسان، الأصول، ص 53.

24- أبو حيان التوحيدي، المقابسات، القاهرة: 1924م، ص137.

25- كريم ناصح الخالدي، أصالة النحو العربي، ص118. نقلا عن العكبري أبو البقاء، مسائل خلافية في النحو، تح: محمد خير الحلواني، ص10.